تحوُّلات الحداثة والحاجات الأساسيَّة للإنسان المُعَاصِر

إبراهيم علي بور*

مقدّمة

يُعـدُ مارتـن هيدجـر[1] مـن أهـمّ الفلاسـفة المعاصريـن الّذيـن ألقـوا العديـد مـن المحاضـرات والكتابـات حـول الأزمـة فـي العصـر الجديـد، وحاجـات الإنسـان المعاصـر. وتتعـرّض كتابـات هيدجـر المُتأخّـرة، بشـكلٍ أسـاس إلـى وضعيّـة الإنسـان فـي هـذا العصـر، ومكانـة التكنولوجيـا، العدميّـة (النهيليـة) التكنولوجيّـة، والأزمـات

* كان المرحـوم الدكتـور إبراهيـم علـي بـور أحـد علمـاء الحـوزة العلميّـة فـي قـم، وكان مُهتمًّـا جـدًا بالعلـوم الفكريّـة. أنهـى دراسـة سـتّ سـنوات مـن البحـث الخـارج فـي الحـوزة العلميّـة فـي قُـم المُقدّسـة. حـاز درجـة الماجسـتير فـي الفلسـفة مـن جامعـة مفيـد، والدكتـوراة فـي الفلسـفة والعلـوم الإسـلاميّة مـن جامعـة قُـم. وكان عضـوًا فـي هيئـة التّدريـس فـي معهـد العلـوم والثّقافـة الإسـلاميّة منـذ العـام 2006م، وقبـل ذلـك كان عضـوًا فـي هيئـة التّدريـس فـي معهـد الإمـام الخمينـي للتّعليـم والبحـث لمـدّة عاميـن. كمـا كان زميـلًا باحثًـا فـي مركـز أبحـاث موسـوعة العلوم العقليّـة الإسـلاميّة، ومديـرًا عامًّـا للمشـروع الإسـلاميّ واحتياجـات الإنسـان المعاصـر، وعضـوًا فـي مجلـس النّشـر فـي جامعـة الزهـراء. توفـي فـي 8 تشـرين الأول 2020 ؛ نتيجـة إصابتـه بالكوفيد 19.

1- Martin Haidegger (1976-1889).

القادمة، وطرق الخروج من تلك الأزمات. ومن جملة مؤلّفاته: «عصر صورة العالم»[1]، «السُّؤال المُتعلّق بالتكنولوجيا»[2]، «رسالة حول المذهب الإنسانيّ(النّزعة الإنسانيّة/الإنسانويّة)»[3]، «نيتشه»[4]، «أصل العمل الفنّيّ»[5]، «كلامٌ في التفكير»[6]، ما الميتافيزيقيا»[7]، «لماذا نحبّ البقاء في الريف؟»، والعشرات من الآثار الأخرى، الّتي يمكن تتبّع جذورها لدى هيدجر «المتقدّم»[8] وحتى في كتابه الأساس «الوجود والزمان»[9].

هيدجر فيلسوفٌ فاق تأثيره المجال الفلسفيّ؛ ولم يتأثّر به الفلاسفة فحسب؛ بل علماء اللّاهوت، والفنّانون، والشعراء، وعلماء النّفس، والمؤرّخون في مجالات مختلفة أيضًا. كما أنّه أوّل فيلسوفٍ قام بنقد قضايا مهمّة وتمحيصها تتعلّق بالعدميّة والتكنولوجيا.

1- die zeit des wel.tbiL.des.

2- Die frag nach der technik.

3- uber den humanismus, (1949) ncetzshe1, II. (1961).

4- Der ursprung des Kunstwerkes.

5- تمّ ترجمة تلك الرسالة تحت عنوان «الإنعتاق»، كلامٌ في التفكير المعنويّ، ونُشرت ضمن مجموعة فلسفة وأزمة الغرب.

6- elassenheit. Pfullingen, neske (1959).

7- was ist metaphysic (1969).

8- يقسم معظم الباحثين في فكر هيدجر، التفكير الهيدجري إلى مرحلتين: هيدجر المُتقدّم، وهيدجر المُتأخّر. وتبدأ المرحلة الأولى منذ العام 1915م ولغاية العام 1935م. والهدف المُهمّ لهيدجر في تلك المرحلة هو إثارة قضيّة الوجود، قضيةٌ قد سُكِت عنها في تراث الفلسفة الغربيّة، وتركت للنسيان. أهم أعماله في تلك المرحلة كتابه «الوجود والزمان». أمّا مرحلة هيدجر المُتأخّر فتبدأ مع انتشار «رسالةٌ في المذهب الإنساني (أو الإنسانوية)» التي يسعى فيها إلى تقديم تحليلٍ جديدٍ للوجود، وتتعرّض أكثر أعمال هيدجر المُتأخّرة إلى موضوعاتٍ معاصرة مهمّة، مثل: الفن، التقنية (التكنيك)، النزعة الإنسانية أو الإنسانوية، عصر تصوير العالم، أزمات العالم المعاصر ،... . ويذكر بعضهم مرحلة وسطى تقع بين الأعوام 1930م و 1935م. ومن المؤكّد أنّ هناك علاقةً وثيقةً بين هاتين المرحلتين من التّفكير؛ بحيث إنّه لا يمكن تقديم تحليلٍ صحيحٍ عن أفكار هيدجر في المرحلة الثانية دون فهم فكر هيدجر المُتقدّم، وهذا الأمر قد أكّده هيدجر نفسه.

9- sein und zeit (1955).

إنّ نطاق كتابات هيدجر كبيرة الحجم وواسعة؛ ومن هنا، فقد سمّاه الكثيرون بأنّه «أكبر فلاسفة القرن العشرين». وهيدجر مُفكّرٌ أضاف إلى أفق ذهن البشر اتّساعًا، وأثار أبعادًا جديدةً للتّفكير. وفي العصر الحاضر، كتب الكثير من علماء اللّاهوت عن فلسفته وفكره. ومن المفارقات أنّ المسافة بين الموافقين لأفكار هيدجر والمعارضين لها كبيرة بشكلٍ عجيب.

يحاول هيدجر «المُتقدّم» من خلال تقديم «الوجود والزمن» أن يحلّ أزمة الغرب. فهو يعتقد بأنّ الكثير من الأزمات الموجودة في العالم الحديث هي نتاج الانحراف الحاصل في التّاريخ الغربيّ. ويسعى هيدجر «المتأخر»، ضمن شرحه لمشكلات العصر الجديد والإنسان المعاصر إلى إطلاق مشروعٍ جديدٍ، وفتح طرق للخروج من الأزمة. الاسم الذي يطلقه على أعماله هو «الطرقً»[1]. على الرّغم من ذلك، يعتقد الكثير من شُرّاحه وتلامذته، أنّ هناك توافقًا كاملًا بين آثاره الأوّليّة واللّاحقة، وأنّ جميع آثاره تتعقّب هدفًا واحدًا. وقد تمّت الإشارة إلى أنّ القضيّة الأساس لهيدجر هي أزمة الإنسان المعاصر الغربيّ. وكما يناقش هو أنّ جذور تلك الأزمة تعود إلى الفكر الفلسفيّ الغربيّ، وظهور الحضارة والمرحلة الجديدة للعلم والتكنولوجيا. ولتلك الأزمة أبعادٌ مُتعدّدة.

تسعى هذه المقالة إلى تقديم تصوُّر عن وضعيّة الإنسان في عصر الحداثة، والأزمات الّتي يعيشها، وطرق الخروج منها، استنادًا إلى آثار هيدجر وأهم شرّاحه.

رؤية العصر الحديث

نادرًا ما صرف هيدجر وقته في البحوث التّاريخيّة والاجتماعيَّة حول الحداثة. فهو فقط في كتابه «نيتشه»، أطلق على المرحلة الزمنية ما بين 1600 و 1900

1- في أيّامه الأخيرة، عندما كان يُعيد النّظر في المجلّد الأول من مجموعة أعماله، والّذي جعله عنوانًا لتمام المجلّدات، اقترح عبارة «wege-nicht werke» ؛ أي الطريق، وليس الأثر. وانطلاقًا من اعتقاده بهذا الموضوع، فقد أكّده مرارًا في مقابلاته، ولقاءاته وحتى في محاضراته؛ إذ كان يتصوّر أنّ عمله هو الطريق الممكن فقط في الفلسفة، وليس أكثر، وكان كثيرًا ما يدعو الجميع وقبل أن يبدأوا بالبحث في أعماله، إلى التأمُّل والتفكير في تلك الأعمال.

ميـلادي اسـم العصـر الحديـث، وفـي رسـالته «الإنعتـاق» يشـير إلـى أنّ القـرن السّـابع عشـر هـو بدايـة ذلـك العصـر؛ الـذي يعـدُّه قـد بـدأ منـذ عصـر النّهضـة، واسـتمرّ إلـى القـرن العشـرين.

ويسـمّي العصـر الجديـد بـ «عصـر الظّلمـة»[1]، ويعـدُّ القرن التّاسـع عشـر أكثـر القرون ظُلمـة. بالطّبـع، هـو لـم يكـن فـي صـدد إنـكار عظمـة القرنيـن: التاسـع عشـر، والعشـرين، أو غـضّ النَّظـر عنهمـا؛ تلـك العظمـة الّتـي ذكـر شـواهد كثيـرةً عليهـا فـي أماكـنٍ أخـرى. ويقـول فـي كتابـه «حـول كانـط»:

«لـم يسـبق أن كان هنـاك الكثيـر مـن المعلومـات عـن الإنسـان كمـا هـو الحـال فـي عصرنـا، ولـم يصـرّح أيّ زمـنٍ آخـر بمعلوماتنـا عـن الإنسـان مثـل زمننـا بتلـك الطّريقـة المؤثّـرة والمدهشـة، ولـم يكـن بالإمـكان فـي أيّ زمـنٍ آخـر توفيـر تلـك المعلومـات بتلـك السّـهولة والسّـرعة. مـن ناحيـةٍ أخـرى، لا يوجـد زمـانٌ آخـر علـى الإطـلاق لـم تكـن معلوماتـه تافهـة كمـا هـو الحـال بالنّسـبة إلينـا، حـول ماهيّـة الإنسـان. ولـم يكـن الإنسـان فـي أيّ زمـنٍ آخـر، غامضًـا ومجهـول الهُويّـة بقـدر زماننـا نحـن»[2].

إنّ تلـك العبـارات تشـبه الصّرخـة والأنيـن اللّذيـن يطلقهمـا نيتشـه[3] بـ «نحـن المدركـون بأنّنـا لا نـزال مجهوليـن لأنفسـنا»[4]. بهـذا المعنـى، نكـون قـد خطونـا نحـو عصـر «الظُّلمـة الّـذي لـم يهـرّب الآلهـة فحسـب»؛ بـل أمـات بارقـة النُّـور الإلهـيّ فـي التّاريـخ، وفـي تقديـر هـذا العالـم[5]. لقـد حـلّ «عصـر انحطـاط المعنويّـة»، وهيمنـت الموضوعـات الكمّيّـة علـى الهواجـس النّوعيّـة وتحوّلـت كلّ الحيـاة إلـى معادلـةٍ اقتصاديّـةٍ نفعيّـة[6]. مـن هنـا، ينزلـق الإنسـان الحالـي مـن أزمـةٍ إلـى أخـرى؛ إنّ العصـر

1- مارتـن هيدجـر، «مـاذا يفعـل الشـعراء؟» ، ترجمـة: منوتشـهر أسـدي، دروب الغابـة، طهـران، انتشـارات دُرج، 1378، ص320.

2- مارتـن هيدجـر، حـول كانـط، نقـلًا عـن بابـك أحمـدي، هيدجـر وتاريـخ الوجـود، طهـران، نشـر مركـز 1381، كتـاب يكـم.

3- Freidrich Wilhelm Neirtzsche (1844-1900)

4- المصدر نفسه.

5- مارتن هيدجر، ماذا يفعل الشعراء؟، مصدر سابق، ص 320.

6- بـروس اسـميث، غرغـوري، نيتشـه، هيدجـر والعبـور إلـى مـا بعـد الحداثـة، ترجمـة: علـي رضـا سـيد أحمديـان، آبـادان، نشـر پژوهـش، 1379، ص266.

الحديث هو، «عصر نسيان الوجود»[1].

من منظور هيدجر، فقد انطفأ إشراق «الوجود» في غبار تاريخ الغرب، على الرّغم من أنّه يعتقد أنّ علّة ذلك النّسيان هو الميتافيزيقا الغربيّة بعد أفلاطون[2]. ولذا، يهاجم بشدّة أفلاطون بصفته نقطة بداية ذلك الانحراف، ولكنّه يعتقد أنّ العصر الجديد هو ذروة ذلك النّسيان: «هل نندهش اليوم من عدم قدرتنا على فهم لفظ الوجود؟ مُطْلَقاً!»[3].

يعتقد هيدجر أنّنا اليوم غير مدركين حتّى لغفلتنا عن أنفسنا. إنّ الإنسان نسي لسنوات منشأه الأهمّ والأساس وهو غافلٌ عن نسيان نفسه أيضًا؛ بحيث أصبح نسيان ذلك الغياب العنصر المُحدِّد والمُجسِّد للعصر الجديد: «إلى الحدّ الّذي أصبح فيه الإنسان بعيدًا ومهجورًا عن علاقة الوجود بذاته، وفي الوقت نفسه، يظلّ ذلك الهجر مُختبئًا أيضًا ومحجوبًا. كيف حدث مثل ذلك الأمر؟! كيف فات الأوان الآن على تلك الحال؟»[4]. لذلك، لم يعد لدى الإنسان تصوُّر حول حقيقة الوجود، وانتظمت العلاقات الإنسانيّة بطريقةٍ غير صحيحة، وتشكّلت الثّقافات الجماهيريّة، وحلّ استبداد الاعتقادات العامّة مكان الحكمة والتّفكير، وأصبحت الطّبيعة والأرض بالنسبة إلى الإنسان مجرّد مصدرًا للنّفع، وأصبح العقل الإنسانيّ حسابيًّا وأداتيًّا. وهكذا، تشكّل «عصر بلا فكرٍ تمامًا».

«دعونا لا نخدع أنفسنا، نحن جميعًا، بما في ذلك أولئك الّذين يُطلق عليهم أنّهم يمتهنون التفكير، غالبًا ما نكون نعاني- إلى حدٍّ ما- من الفقر في التّفكير. كلّنا فاقدون للتفكير بشكلٍ مُتساهلٍ جدًّا. اللاتفكير، هو الضّيف الخفيّ المنتشر اليوم في كل مكانٍ في العالم؛ لأنّنا اليوم نتعلّم كلّ شيءٍ بأسرع طريقة وأقلّها كلفة، فقط من أجل أن ننسى ذلك بسرعة وبشكلٍ عاجل. بهذه الطّريقة، يتمّ عقد

1- Martin Haidegger, being and Time, Translator: John Macquarreis, New York, p.2-30.

2- Plato.

3- Martin Haidegger, "Letter on Humanism", Basic writings, Edited by David K. Farrell, New York, 1977, p.198-199.

4- مارتن هيدجر، ما الميتافيزيقا، ترجمة سياوش جمادي، طهران، انتشارات ققنوس، 1383، ص140.

الاجتماع تلو الاجتماع. أصبحت المراسم التّذكاريّة في الفكر الأفقر عن السّابق. يتمّ إقامة احتفالات إحياء الذكرى واللّاتفكير جنبًا إلى جنب»[1].

في «رسالة حول النّزعة الإنسانيّة»، يعتقد هيدجر أنّ سبب هذا اللّاتفكير هو انفصال التفكير عن أصله. عندما ينتهي التفكير بالانفصال عن أصله، لا يعود الإنسان يفكر؛ بل يُشغل نفسه بالفلسفة. على هذا الأساس، ينخرط البشر في إنشاء المذاهب والمدارس الفكريّة، أو بتعبير هيدجر «استعراض المبادئ»[2] من أجل التّنافس، ومن دون أن يستفيدوا من التّأمُّل والتفكير[3]. ومن السّمات الأساس لهذا العصر والتي تعرّض لها هيدجر كثيرًا في آثاره، أنّه «عصر اللّامعنى والعدميّة».

فمن منظور هيدجر، العصر الجديد، هو مرحلة العدميّة، وزمن الافتقار والعُسرة. فإنسان ذلك العصر ليس لديه حتى الألم والسرور، فهو يُكرّر آلام الآخرين، ويستنتج سروره من سرور الآخرين. والإنسان في زمن الافتقار راضٍ عن الواقع؛ لأنّه فقيرٌ لدرجة أنّه ليس لديه فكرٌ يُظهر له طريق حرّيّته، أو حتى تشويه سُمعة ذلك العصر. ويتظاهر الإنسان أنّه يعرف الواقع، وأنّ الحقيقة في حوزته؛ وهذا من أخطر المخاطر أن لا نعلم أنّنا فقراء، وأنّنا بقينا سجناء التّصوُّر الميتافيزيقيّ عن السّعادة[4].

يوجز هيدجر كلامه حول حياة الغرب وتاريخه بجملة نيتشه القائلة: Wast Wachst «الصحراء، تنمو أو أن خراب العمران يتّسع».

في رسالته «عصر صورة العالم»[5] يُعّدد هيدجر خمس سمات رئيسة للعصر الحديث:

1- مارتن هيدجر، «الإنعتاق»، نقلًا عن سياق وعصر الفينومينولوجيا، سياوش جمادي، طهران، انتشارات ققنوس، 1385، ص258.

2- ism.

3- Martin Haidegger, "Letter on Humanism", p.196.

4- بابك أحمدي، هيدجر وتاريخ الوجود، طهران، نشر مركز، 1381، ص335 و 336.

5- رسالة «عصر صورة العالم» من أهمّ رسائل هيدجر في مجال العلم الجديد وعلاقته بميتافيزيقا العصر الجديد. وتُعدُّ تلك الرسالة زبدة آراء هيدجر حول ذلك العصر. ويتحدّث فيها عن الأُسُس الميتافيزيقيّة للعصر الجديد. ومن وجهة نظره، إنّ محوريّة الإنسان؛ أي تحوّل الإنسان إلى ذات، يعني السُّقوط في العدميّة.

1. العلم:

«أحد الظّواهر الذاتيّة للعصر الحديث هو العلم»[1]. في عصر تجديد الحياة العلميّة – الثقافيّة، حصلت ثورة في التَّطوُّرات العلميّة، وتمّ اكتشاف الكثير من القوانين العلميّة وإبداعها. فوُلدت الثّورة الصناعيّة، ونمت الاختراعات العلميّة المدهشة. ولذلك، ركع الإنسان الحديث أمام العلم تعظيمًا في هالةٍ من الحيرة والدهشة، وأصبحت العلميّة هي قدر العصر الجديد، وأيّ شيءٍ لا يُختم بختم العلم، والتّجربة والاختبار فسوف يُرفض دون أدنى تأمُّل.

وفي «رسالة حول النّزعة الإنسانيّة»، يذكّر هيدجر أنّ العصر الجديد هو عصر التقدُّم العلميّ، والجهل الفكريّ. وبسبب ذلك الفقر الفكري، فإنّ الإنسان المعاصر لا يتحمّل النّقد العلميّ، ولا يدرك عمق الكارثة في مسار الانحدار. ومن خلال نظرته السّطحيّة إلى الأمور يعدُّ أيّ نقدٍ لـ «المنطق» دفاعًا عن اللّامنطقيّة والوحشيّة. ويعتقد أنّ انتقاد «قيمة الاعتقاد» مثل معارضة للقيم والاتّفاق مع مُناهضي القيم؛ إذ يُسمَّى نقد النّزعة الإنسانيّة توافقًا مع الهمجيّة والوحشيّة ومعارضة الإنسانية[2].

2. تكنولوجيا الآلة:

الظاهرة الأخرى الّتي لا تقلّ أهمّيّة عن العلم بنظر هيدجر، هي ظاهرة تكنولوجيا الآلة. من منظور هيدجر، إنّ تكنولوجيا الآلة لغاية الآن هي أبرز تجسيدٍ خارجيٍّ لماهيّة التكنولوجيا الحديثة والمتّفقة مع الميتافيزيقا الحديثة.

فهو يعتقد أنّ بشر اليوم يُعرّفون التكنولوجيا بالإمكانات، والأدوات، والوسائل الّتي تساعد الإنسان في تحقيق أهدافه. بناءً عليه، التكنولوجيا اليوم هي نوعٌ من الأداة والنشاط البشري. ومن خلال طرح السّؤال المُتعلّق بالتكنولوجيا، فإنّه يتحدّى التّعريف الحالي ويخلُص إلى «أنّ ماهيّة التكنولوجيا هي انكشاف الحقيقة»، إلّا أنّ الإنسان اليوم يبحث عن غاياتٍ مفتونة بآلات التكنولوجيا وغارقة في مدحها لدرجة أنّه غافلٌ عن حقيقتها وماهيّتها؛ بحيث إنّه حتّى لا يتحمّل التساؤل عنها.

1- مارتن هيدجر، «عصر تصوير العالم»، ترجمة: يوسف أباذري، في: مجلة أرغنون الفصليّة، العدد 11 و 12، ص1.

2- Martin Haidegger, “Letter on Humanism”, p.226-225.

فالإنسان المعاصر هو أسير التكنولوجيا ومقيّدٌ بسلاسلها في كلّ مكان[1].

3. الفنّ والجماليّات:

الظّاهرة الثّالثة الّتي تُعدُّ من ذاتيّات العصر الحديث بالمقدار نفسه الذي سبق ذكره هي، انتقال الفنّ إلى مجال الجماليّات (Aestheteics). وهذا الأمر يعني أنّ الأثر الفنّيّ قد تحوّل إلى موضوع للتجربة الذهنيّة البحتة. وفي النّتيجة، عُدَّ الفنّ تجلٍّ للحياة البشريّة. وطبقًا للرأي الحديث، الجمال أمرٌ ذاتيٌّ ومُتأصّل في الفنّ. فالأثر الفنّيّ النّاجح هو الأثر الذي يكون جميلًا؛ أي أن يكون لديه الجاذبيّة الجماليّة. ويُتوقّع من الفنّ أن يخلق «تجربةً جماليّةً».

يعتقد هيدجر أنّ الفهم الجمالي للفنّ، بصفته نظريّة، قد بدأ مع أفلاطون، ولكن في الحداثة أصبح الفنّ على المستوى العمليّ جماليًّا أيضًا. على هذا الأساس، من منظور هيدجر، لقد شهد تاريخ الفنّ تدمير «الفن الأصيل والعظيم» على مدى قرونٍ عدّةٍ. ولذا، فالجماليّات هي طريقٌ يتمّ فيها تصميم جوهر الأمر الجميل والفنّ على أساس الميتافيزيقيا[2]. في حين أنّ الفنّ في اليونان كان يُحقّق هيمنة الحقيقة، ويحرسها بالتضحية بالنفس، ويهب لها الحضور.

لقد أعطى هيدجر أهمّيّة بالغةً للفنّ الأصيل و«العظيم»[3]، ويعتقد أنّه الأمر الوحيد الّذي لا يمكننا أن نكون سعداء من دونه فحسب؛ بل لن تتوفّر إمكانيّة المواجهة الحتميّة مع بؤس هذا العصر إلّا من خلال عودة «الفنّ العظيم». لذا،

1- مارتن هيدجر، «السؤال المُتعلّق بالتكنولوجيا»، فلسفة التكنولوجيا، ترجمة: شابور اعتمادي، طهران، نشر مركز، 1377، ص38.

2- جوليان يانغ، فلسفة الفن عند هيدجر، ترجمة: أمير مازيار، طهران، گام نو، 1384، ص-20 35.

3- من منظور هيدجر، إنّ الفنّ العظيم هو حدث الحقيقة الشفّاف، يعني ظهور «العالم» و«الأرض» في العمل. وللفن مؤشران أساسيّان: 1. يُظهر حقيقة الموجودات، 2. الفن العظيم عالميّ؛ أي أن يكون مقبولًا من أجل الحفاظ عليه. ويعتقد هيدجر أنّه لمّا كان الفن في العصر الحديث يشتمل على الفهم الجمالي للفنّ، فقد أدّى ذلك إلى موت «الفنّ العظيم»؛ لأنّ أهمّيّة الفنّ أصبحت فرعيّة بالنّسبة إلى الحياة، وأصبح يتمّ التطرُّق إلى الفن؛ لأنّه يؤدّي إلى التهدئة والتسكين، وليس بصفته حاجةً مطلقة وأصيلة لنا. فالفن في تلك الحالة، أصبح لحظةً من راحة الخيال في وسط المشاغل، لمغادرة العالم المضطرب القلق، ولم يعد له علاقة بالعمل؛ أي أنّه أصبح منفصلًا عن أيّ ربطٍ ممكن أن يكون مُتعلّقًا بمقاصدنا العمليّة، أو الفكريّة.

نحـن نحتـاج بشـدّة إلى إحيـاء الفـنّ العظيـم وعودتـه[1].

4. الثقافة:

تتجلّى الظّاهـرة الرابعـة الحديثـة فـي حقيقـة أنّ النّشـاط البشـريّ يُنظـر إليـه علـى أنّـه ثقافـة ويصـل إلـى نهايتـه. ولهـذا السّـبب، الثقافـة هـي تحقيـق أعلـى القيـم مـن خـلال التغذيـة وتربيـة أعلـى المنتجـات البشـريّة. ومـن طبيعـة الثقافـة أن تُغـذّي نفسـها بصفتهـا مغذّيـة، ومِـنْ ثَـمَّ، تتحـوّل لتصبـح سياسـة الثقافـة[2].

5. إنكار الإله:

الظّاهـرة الخامسـة للعصـر الحديـث هـي فقـدان الآلهـة (طـرد الآلهـة)؛ إذ بفقـدان تمـام القيـم الثّابتـة فـي عصـر النّهضـة، ضَعُـف أيضًـا الاعتقـاد باللـه، وأصبـح الأمـر القدسـيّ والمُتسـامي بـلا قيمـة، واعتقـد إنسـان العصـر الحديـث أنّ اللـه أمـر وهميّ، ويشـكّل لـه مانعًـا مـن الاسـتفادة القصـوى مـن الطّبيعـة. ولذلـك، فقـد أزاح اللـه مـن حياتـه جانبًـا. ويعتقـد هيدجـر أنّـه؛ بسـبب ذلـك أصبحـت علاقـة الإنسـان بالآلهـة مجـرّد «تجربـة دينيّـة». وإذا مـا حصـل هـذا الأمـر، يمكـن القـول: إنّ الآلهـة قـد هربـت. ويتـمّ مـلء الفـراغ النّاشـئ مـن ذلـك الحـدث عـن طريـق الدراسـات التّاريخيّـة والنّفسـيّة حـول الأسـطورة [3]وذلـك بدايـة عصـر الانحطـاط.

يتنـاول هيدجـر فـي أعمالـه الأخـرى سـمات أخـرى لهـذا العصـر، مثـل: النّزعـة الإنسـانيّة، أو الاسـتبداد الجماهيـريّ، أو الاعتمـاد المفـرط علـى الـرّأي العـام[4].

1- جوليان يانغ، مصدر سابق، ص34-33. وللاطّلاع أكثر يمكن الرجوع إلى:
1. جوليان يانغ، فلسفة الفن عند هيدجر، ترجمة: أمير مازيار، طهران،، گام نو، 1384.
2. كوكلمانـس يـوزف ، هيدجـر والفـن، ترجمـة: محمـد جـواد صافيـان، طهـران، نشـر پرسـش، 1382.
3. مارتـن هيدجـر، «عصـر تصويـر العالـم»، فـي: مجلـة أرغنـون الفصليّـة، ترجمة: يوسـف أبـاذري، العـدد 11 و12.

2- مارتـن هيدجـر، «عصـر صـورة العالـم»، فـي: مجلـة ارغنـون الفصليّـة، ترجمـة يوسـف أبـاذري، العـدد 11 و 12.

3- مارتن هيدجر، «السؤال المُتعلّق بالتكنولوجيا»، مصدر سابق، ص41-40.

4- المصدر نفسه، ص2.

الأزمات والمشكلات الخاصّة بالعصر الجديد والإنسان المعاصر

بما أنّ الإنسان غير منفصلٍ عن عالمه وعصره، فمن البدهي أن تكون قضايا العصر الجديد هي مشكلات الإنسان المعاصر، أو احتياجاته أيضًا. ومن جهةٍ أخرى، إنّ لموقف الإنسان وتأمُّلاته أثرًا كبيرًا في تشكيل سمات عصره والأزمات القائمة، وكيفيّة الخروج من قضايا هذا العصر. وكما يعتقد هيدجر، فإنّ المشاكل والأزمات الرّئيسة في العصر الجديد ترجع إلى التغيير في موقف أفلاطون والفلاسفة فيما بعد تجاه الوجود والموجود. لذلك، تمّ التّوجُّه في هذه المقالة إلى أزماتٍ من العصر الحديث تتمتّع بالخاصّيّتين الآتيتين:

الأولى: إنّها محلّ اهتمام هيدجر وتأكيده؛ إذ يتنبّه هيدجر في حواشي درس كلماته، أو خطاباته إلى أزماتٍ أخرى، ولكن في هذا القسم سوف يتمّ التطرُّق إلى خصائصها ومؤشراتها البارزة، خصائصُ شكّلت بالحدّ الأدنى المحور الأساس لهيدجر في رسالةٍ، أو رسائل عدّة، وتطرّق إليها مرارًا.

الأخرى: تلك المشكلات والأزمات الخاصّة بالمرحلة المعاصرة، والتي أدّت إلى بروز مشاكل، أو احتياجاتٍ جديدة للإنسان ليست باحتياجاتٍ دائمة، أو أساسية؛ أي أنّها أزماتٌ واحتياجات قد ظهرت بظهور الحضارة الجديدة، ولم تكن موجودة قبل العصر الحديث، أو أنّ حضورها كان ضعيفًا.

1. التكنولوجيا والنزعة الحسابية والأداتية:

كان هيدجر من أوائل الفلاسفة الذين أظهروا اهتمامًا جدّيًّا بموضوع التكنولوجيا، وحوّله إلى قضيّةٍ وجوديّةٍ وموضوعية من أجل البحث الفلسفيّ. ويعتقد دون آيدي[1] أحد الباحثين والشارحين المُهمّين في موضوعات التكنولوجيا النّظريّة[2] بأنّه: «ربما يكون مارتين هيدجر الفيلسوف الوحيد الّذي حوّل قضيّة التكنولوجيا إلى أحد القضايا الأساس للفلسفة بأكثر الطُّرُق ابتكارًا وعمقًا»[3]. وبعد قيامه بمقارنةٍ عكسيّةٍ لعملين مُهمّين لهيدجر؛ أي «الوجود والزمان (1927)»،

1- Don Ihde.

2- تُرجمت مقالاتٍ مُتعدّدة لدون آيدي إلى اللُّغة الفارسيّة، ومنها مقالة «التّقدّم الوجوديّ والتّاريخيّ للتكنولوجيا على العلم» و «الفينومينولوجيا والتكنولوجيا: فلسفة هيدجر للتكنولوجيا».

3- المصدر نفسه.

و«السّـؤال المُتعلّـق بالتكنولوجيـا» (1954)، يخلـص فـي مقالـة «الفينومينولوجيـا والتكنولوجيـا» إلـى نتيجـةٍ مفادهـا أنّ تمـام العناصـر الإسـتراتيجيّة والمُهمّـة لفلسـفة التكنولوجيـا الموجـودة فـي محاضـرة «السـؤال المُتعلّـق بالتكنولوجيـا»، حاضـرة فـي أهـمِّ آثـاره المُتقدّمـة[1].

يسـعى هيدجـر إلـى توضيـح ماهيَّـة التكنولوجيـا بوصفهـا شـكلًا مـن أشـكال الوجود، والّتـي تنكشـف فيهـا حقيقـة الوجـود؛ فالتكنولوجيـا هـي نحـوٌ مـن الانكشـاف الّـذي يدعونـا إلـى الصّـراع بصفتـه مصيـر التقديـر.

وكمـا أشـرنا فـي بدايـة هـذه المقالـة، يعتقـد هيدجـر أنّ «تكنولوجيا الآلـة» هي إحدى السّـمات الخمـس للعصـر الحديـث، ولا تقـلّ أهمّيّتهـا عـن العلـم. ولكـن هـذا لا يعنـي أنّ هيدجـر ضـدّ التكنولوجيـا، ولا يراهـا أمـرًا خطـرًا وشـيطانيًّا. ومـن منظـوره، إنّ أداة التكنولوجيـا الّتـي يحتمـل أن تكـون مُهلكـة بالقـوّة، لا تُشـكّل أيّ تهديـدٍ. فالتكنولوجيـا والتّهديـد ينشـآن مـن قلـب التّقديـر. «فالخطـر يكمـن هنـاك، حيـث لا يتمكّـن الإنسـان بالاسـتناد إلـى ماهيّتـه الوجوديّـة، مـن الإجابـة عـن تحـدّي التكنولوجيـا وصراعهـا؛ وبدلًا مـن ذلـك، يتحـوّل بنفسـه إلـى شـيءٍ تكنولوجـيٍّ ويخضـع للانضبـاط تقنيًّـا»[2].

خلافًـا للتَّصـوُّر السّـائد، لا يعـارض هيدجـر التكنولوجيـا، علـى الرّغـم مـن أنّـه مـن المنتقديـن الجدّيّيـن لهـا، ويعتقـد بمـا أنّ البشـر اليـوم لا يتعاملـون مـع التكنولوجيـا بطريقـةٍ صحيحـة، فقـد عانـوا الكثيـر مـن الضّـرر النّاتـج مـن آفاتهـا، وهناك مخاطـر أكبر تتهـدّد عالـم اليـوم. ولـم تنشـأ تلـك المشـاكل مـن رحـم التكنولوجيـا؛ إنّمـا مـن عـدم تعامـل الإنسـان الصّحيـح معهـا. وعلـى هـذا الأسـاس، وعلـى الرّغـم مـن أنّ التكنولوجيـا ليسـت بمشـكلة، أو قضيـة؛ إلّا أنّهـا منشـأ الأزمـات والمشـاكل فـي هـذا العصـر. ولذلـك، تمّـت إثارتهـا بوصفهـا إحـدى أهـمّ العناويـن فـي أزمة فلسـفة الغـرب، وفي فلسـفة هيدجر علـى وجـه الخصـوص. ويحـاول هيدجـر مـن خـلال تأمُّـلٍ أعمـق بماهيّـة التكنولوجيـا

1- آيـدي دون، «الفينومينولوجيـا والتكنولوجيـا: فلسـفة هيدجـر للتكنولوجيـا»، فـي: مجلّـة الثقافـة، ترجمـة: شـابور اعتمـاد، العـددان: 4 و 5، ص226.

* بعـض أعمـال هيدجـر تطرّقـت مباشـرةً إلـى موضـوع التكنولوجيـا، ومنهـا: «السُّـؤال المُتعلّـق بالتكنولوجيـا»، و«التقنيـة والفـن»، و«عصـر تصويـر العالـم» و «الإنعتـاق».

2- مارتـن هيدجـر، «السُّـؤال المُتعلّـق بالتكنولوجيـا»، فلسـفة التكنولوجيـا، ترجمـة: شـابور اعتمـاد، ص22.

وربطها بمفهومي التقنية (الفن/الحرفة)[1] والصّنع (التشكيل/بوئيسيس)[2] اليونانيّين، أن يُغيّر من علاقة الإنسان بالتكنولوجيا، وأن يفتح الطريق أمام ظهور شكلٍ أكثر أصالة للوجود، على الرّغم من اعتقاده أنّ «التّهديد الواقعي قد ترك أثره على ماهيّة البشر»[3].

يمنعنا هيدجر في رسالته «عصر صورة العالم» بصراحة من إنكار سمات العصر الحديث وبدلًا من ذلك، يدعو إلى التأمّل وإثارة السؤال الإبداعيّ والتفكير: «لن يتمكّن الإنسان أبدًا من التجربة والتفكير في هذا الشيء المحجوب، طالما أنّه يُضيّع وقته في نفي هذا العصر. إنّ اللُّجوء إلى التُّراث بمساعدة مزيجٍ من التّواضع والغطرسة لن يكون مُثمرًا في حدّ ذاته، إلّا خداع الذّات والعمى في مواجهة تلك اللّحظة التّاريخيّة. لن يعرف المرء ما هو غير محسوب إلّا بمساعدة الاستجواب الإبداعيّ والتشكيل بناءً على قوّة التَّأمُّل الأصيلة؛ أي أنّه يجب المرور عبر ذلك حتى يصل إلى حقيقته. إنّ تأمُّل الإنسان سيرسل المستقبل إلى «الوسط» (between) الذي يتعلّق بالوجود»[4].

يُحدّد هيدجر مجال ردود الفعل المُمكنة على التكنولوجيا. ويبدأ هذا المجال بمعلوماتٍ عمياء وينتهي بالتّمرّد بمقدار ما هو أعمى. ولكنّه يرى أيضًا ردّ فعل مُحتملٍ آخر، وهو إقامة علاقة عادلة وحرّة مع التكنولوجيا. ومن خلال دعوة البشر اليوم للتأمُّل والتفكير، يسعى هيدجر إلى تصحيح تلك المواجهة.

إنّ مقاربتنا للتقنية ومواجهتنا للتكنولوجيا، يُمثّلان حجاب الحقيقة في العصر الحديث. من منظور هيدجر، إنّ التقنية ـ الّتي طبيعتها الأساسية ليست سوى مواكبة تجلّي الحقيقة ـ تحجب تلك الحقيقة في العصر الحديث. لقد كان للتقنية لدى اليونانيّين قبل سقراط، المعنى نفسه للصنعة، البناء والإنتاج. كان هناك أوجه شبهٍ بين إنتاج الأدوات اليوميّة والإنتاج الفنّيّ. فكلٌّ منهما كان يزيح الحجاب عن وجه الحقيقة. بناءً عليه، عدُّوا التقنية كشفًا للحجاب القابع على وجه الحقيقة. والمسألة المهمّة في التقنية هي أنّها ليست استخدام الأداة أو البناء؛ إنّما الانكشاف والظهور:

1- techne.

2- poiesis.

3- مارتن هيدجر، «السُّؤال المُتعلّق بالتكنولوجيا»، مصدر سابق، ص41-40.

4- أحمدي بابك، الحداثة والفكر الانتقاديّ، مصدر سابق، ص108-107.

«التقنية تعني كشف الحقيقة». «الانكشاف السّائد في التكنولوجيا الجديدة، لا يُحقّق نفسه في الإنتاج بمعنى بوئيسيس. فالانكشاف السّائد في التكنولوجيا الجديدة هو نوعٌ من العدوان»[1].

نظرًا إلى أنّ التكنولوجيا، وفقًا لتقديرها، هي فاتحة للطّريق ومفعمة بالأمل، وكذلك حاجز وحجاب، لذا، فإنّ مقاربتنا تجاه العالم والطبيعة تجعل دائمًا أحد العنصرين المُتميّزين للتكنولوجيا مُمكنًا. ويعتقد هيدجر أنّ بشر اليوم فرّارون من التفكير، وعالقون في العقل الحسابي. فالتفكير الحسابيّ مشغولٌ دائمًا بالمحاسبات الاقتصاديّة، ويحسب دائمًا الاحتمالات الاقتصاديّة، ويُسرع متنقّلًا من رؤيةٍ إلى أخرى ولا يهدأ أبدًا؛ تفكيرٌ يفكّر بالعمل وبالنتيجة وبالمقدار نفسه غير مستفيد من الحقيقة؛ إذ إنّ مشعل التّفكير المعنوي في مثل تلك الوضعية مُتّجهٌ نحو الأفول، ويسير الإنسان من دون وعي نحو العدم، والعدميّة، واللّامعنى التّام. وتختفي القيم المعنويّة والإنسانيّة، وتنسى حقيقة الوجود. ومن خلال استذكاره لشعر يوهان بيتر هيبل الذي أنشد قائلًا:

نحن مثل الشتلات
يجب أن نسحب رؤوسنا من التراب
من جذورنا طوعًا أم مجبرين
حتى نتفتّح في الأثير
ونصبح مثمرين

يقول هيدجر: «مقصود الشاعر هو أنّه من أجل خلق أثرٍ فنّيٍّ مبهج ومسالم، يجب أن يكون المرء قادرًا على النّهوض من أعماق الأرض والعروج إلى السّماء. وتشير كلمة «أثير» في هذه القصيدة إلى فضاء السّماوات العُليا، وهو ما يعني نطاق الروح، ونفكّر أكثر ونسأل: هل ما زال ادّعاء يوهان بيتر هيبل ذلك صادقًا إلى هذا اليوم؟ هل ما زال الإنسان يُفكّر بهدوءٍ وطمأنينة بين السّماء والأرض؟ هل ما زالت هناك روحٌ مفكّرة سائدة على الأرض؟»[2].

يعتقد هايدجر من خلال التذكير بالآثار المخرّبة لهيمنة الفكر الحسابي وتكنولوجيا الآلة، أنّ إنسان اليوم فَقَدَ وطنه، أو مسقط رأسه، وأصبح مُشرّدًا في

1- مارتن هيدجر، «السُّؤال المُتعلّق بالتكنولوجيا»، مصدر سابق، ص10-9.

2- مارتن هيدجر، «الإنعتاق: كلامٌ في التّفكير المعنويّ»، مصدر سابق، ص123.

الأراضي الأخرى، أو أنّه يعاني في اضطرابات المدن الكبرى، وقد اختار مأوًى في صحراء الصّناعة القاحلة، وحتى أولئك الذين بقوا في مسقط رأسهم، هم أكثر من غيرهم غربةً وتشريدًا؛ إذ يمضي الناس اليوم ساعاتٍ وأيام في أَسرِ وسائل الإعلام من راديو، وتلفزيون، وتسوقهم الأفلام السينمائيّة لأسابيع مُتوالية إلى عوالم خياليّة بعيدة عن الحقيقة، ولكنّها أصبحت عاديّة تمامًا، وتلقّنهم عالمًا موهومًا مُضرًّا وخاليًا من التفكير والمعنى، وتهجم على إنسان اليوم مجلّاتٍ مُصوّرة ومبتذلة وفارغة من المعنى والقيم في متناول الجميع فتجرّه إلى هذا الاتّجاه، أو ذاك.

لم تعد الأرض مكان الحياة والعروج والاستخراج وإعطاء الثمر؛ بل أداة للاستغلال. «إنّ ما هو خطير في الإدارة البشريّة اليوم هو، وقبل كلّ شيء، أنّ الأرض كلّها؛ بل الكون كلّه أصبح يُعدّ كتلةً كثيفة من الموارد التي يجب استغلالها. بمعنى آخر، يرى أصحاب التكنولوجيا والإدارة الجديدة أنّ الأرض كلّها مثل متاعٍ وذخيرة، قابلة للتّصرُّف فيها»[1]. وما اللّامكان، والتشرّد البشريّ إلّا نتيجة نمط هذه الحياة وأسلوبها. وقد حذّر هيدجر في رسالة «البناء، والإقامة، والتفكير» من أنّ جميع أمور الإنسان الجديدة اليوم تنشأ في حضن التكنولوجيا. ولذلك، فقد ولّى أيّ إمكانٍ آخر. لقد توسّعت هيمنة الأداتيّة التكنولوجيّة، وهذا هو الخطر الأكبر؛ لأنّه يؤدّي إلى الإلغاء التّامّ للوجود[2].

تجلب التكنولوجيا المنافع المادّيّة ورفاه الحياة كلّ يوم، ولكن ما تأخذه من الإنسان، في المقابل، هو الأفكار الأصيلة وحرّيّة الانتقاء والعيش، حتى لو نلنا حقوق الإنسان والسّلام العالميّ. ويقول هيدجر: إنّ أداة السّيطرة والسّيادة المطلقة للتكنولوجيا على حياة الإنسان، هما اليوم، «أقرب من المزارع المحيطة بمنزله، وأقرب من السماء فوق الأرض، وأقرب من دوران اللّيل والنّهار، وأقرب من عادات قريته وتقاليدها»[3].

تحدّث هيدجر عن عصر الذّرة بصفته أبرز إنجازات تكنولوجيا العصر الجديد.

1- ماك ورتر ليدل، «خطيئة تكنولوجيا الإدارة: دعوة هيدجر إلى التفكير»، الفلسفة وأزمة الغرب، ترجمة: محمد رضا الجوزي، ص171.

2- مارتن هيدجر، «السُّؤال المُتعلّق بالتكنولوجيا»، مصدر سابق، ص 26 و 27.

3- مارتن هيدجر، «الإنعتاق: كلامٌ في التّفكير المعنويّ»، مصدر سابق، ص124.

في العام 1955م، أصدر ثمانية عشر فائزًا بجائزة نوبل للسّلام بيانًا أعلنوا فيه أنّ «العلم [المقصود هو العلوم الطّبيعيّة] هو الطريق إلى حياة أكثر سعادة»، وفي تلك السنة نفسها، تحدّى هيدجر ذلك البيان في خطابه «الإنعتاق» مُستجوبًا إيّاه: «ما معنى هذا الكلام؟ هل جاء مثل هذا البيان من منطلق التّأمُّل؟ هل قيل هذا من باب التفكير بمعنى عصر الذرّة؟ لا! لأنّنا إذا ما تعلّقنا بكلام العلم هذا، فسنبتعد عن النظرة المُتأمّلة لعصرنا أكثر من أيّ وقتٍ مضى؛ لماذا؟ لأنّنا سنغفل عن التفكير والتأمُّل في عاقبتنا»[1].

لقد أحضرت التكنولوجيا معها السرعة في الانتقال وإمكانيّة اكتساب معلوماتٍ أكثر وأسهل، التسهيل في التعليم، والإمكانات المتزايدة للرفاه والصّحة التي أدّت إلى زيادة مُعدّل طول العمر في العالم. ولكن بسبب تعامل الإنسان غير الصّحيح مع التكنولوجيا، وفقدان التأمّل والتّفكير، وعدم امتلاك التكونولوجيا للجذور، فقد أحضرت أيضًا معها قوة الحروب المُدمّرة، وسهولة إشراف الشرطة على الحياة الشخصيّة للمواطنين، والدمار المُتزايد للبيئة، وخطر الحروب النوويّة، والتدمير الجماعي لكوكب الأرض. ولذا، من المُمكن أن تؤمّن التكنولوجيا الرّاحة ولكنّها لن تجلب السّكينة والسّلام. على هذا الأساس، إنّ الإنسان المعاصر مضطرب، وآلامه في تزايدٍ، ويعاني من موقفٍ مُتناقضٍ. فمن جهةٍ، وسّع العلم والتكنولوجيا الحياة المادّيّة، ومن جهةٍ أخرى، جعلت حياته فارغة؛ إذ يشعر الإنسان المعاصر المستفيد من نتائج الاكتشافات التكنولوجيّة والاقتصاد المُتقدّم بالفراغ في داخله[2]. ويعتقد هيدجر أنّ إساءة استخدام التكنولوجيا هي ثمرة شجرة ديكارت التي لا أصل لها ولا جذور. ومن هذا المنطلق، يسعى إلى تقوية الجذور الميتافيزيقيّة لشجرة ديكارت في أصل الوجود وأساسه. ويعتقد هيدجر أنّ خطر إساءة استخدام التكنولوجيا أكبر بكثير من الأضرار والمخاطر النّاشئة من انفجار القنبلة الذرّيّة.

يقول غيلين غيري في مُقدّمة كتابه «ما التفكير»[3]: «أولئك المُطّلعون على

1- مارتن هيدجر، «الإنعتاق: كلامٌ في التّفكير المعنويّ»، مصدر سابق، ص124.

2- عبد المجيد إسكندري، «التكنولوجيا وقيم الإنسان»، في: مجلّة كيهان الثقافيّة، العدد 162، ص48-47.

3- was heist denken, (what calls for thinking).

رسائل هيدجر الأخيرة في ما يخصُّ العلم والتكنولوجيا، سوف يتجنّبون الاعتقاد بأنّه «ضدّ العلم»، أو أنّه مُتشائم في ما يخصُّ التّحوُّلات الحاليّة للعالم»[1].

على هذا الأساس، لا تفصح شدّة انتقادات هيدجر وتحذيراته سوى عن أهمّيّة القضيّة وعمق الكارثة. فمن منظوره، تستحقّ ماهيّة عصرنا التكنولوجيّة التفكير أكثر من أيّ عصرٍ آخر؛ لأنّ الإنسان الجديد بصدد توسيع سيطرته وهيمنته على تمام الكرة الأرضيّة. ومن جهةٍ أخرى، فقد ازدادت قابليّاته للخير والشر بشكلٍ واسعٍ. إنّه العصر الّذي وصلت فيه الإرادة اللّاهادفة والنّهمة للإنسان إلى ذروتها، وازداد التّنافس للهيمنة على العالم، واُستخدمت التكنولوجيا لخدمة الظلم، والقهر، والاستبداد، وفتح العالم؛ عصرٌ يسمّيه هيدجر، باستهزاء عصر «الأمركة»، ولا يُميّز بين اللّيبراليّة الأمريكيّة، وبين الشّيوعيّة السّوفياتيّة في الاستفادة الأداتيّة وغير الصّحيحة من الإمكانات التكنولوجيّة والتفكير السّياسيّ والاجتماعيّ غير الصّائب، ويرفض كلًّا منهما من الأساس. إنّ عصر التكنولوجيا هو عصرٌ يتصوّر الإنسان فيه أنّه يعلم كلّ شيءٍ، في حين أنّه غارقٌ في غفلةٍ تامّةٍ؛ بحيث إنّه لا علم له حتى بغفلته وغيابه. فناس اليوم يظنّون أنّهم يعيشون في العصر الذهبيّ، في حين أنّهم، وفقًا لهيدجر، يعيشون في «عصر الظُّلمة»، أو أنّه أكثر العصور ظُلمةً.

يرى هيدجر أنّ هذا العصر هو؛ عصر التكنولوجيا، عصر الطّموح والعظمة، عصرٌ يصنع فيه النّاس قنابل وزنها طن، ويُنشئون أمطارًا اصطناعيّة، عصرٌ يتحلّق فيه مئات الفلاسفة لمقارنة تصوُّراتهم عن العالم، ويرون جوانب من ظاهرةٍ واحدةٍ، عصر الصورة العالميّة، عصرٌ ينسى فيه الإنسان الوجود بشكلٍ كامل، ولا يدرك إمكانيّة وجود شيءٍ خارج علاقة الهدف-الوسائل[2].

إنّ عصر تصوير العالم، هو عصرٌ يتحوّل فيه الإنسان إلى ذاتٍ أو ذهنٍ، وتكتسب الأشياء الأخرى حقيقة وجودها منه. لقد أصبح الإنسان مركز العالم، ويسعى إلى غزو العالم من خلال جعل كلّ شيءٍ فيه أمرًا موضوعيًّا وحسابيًّا وتجزيئيًّا. «الحدث

1- غيري غيليـن، «تمهيدٌ للتفكير ما بعد الغد»، الفلسفة وأزمة الغرب، ترجمة: محمد رضا جوزي، ص159.

2- ريتشارد رورتي، «مقالات فلسفيّة: هيدجر وآخرون»، ترجمة: هاله لاجوردي، في: مجلة ارغنون الفصليّة، العدد1، ص212-193.

الأساس في العصر الحديث هو غزو العالم بوصفه صورةً»[1].

2. انحطاط المعنويَّة وفقدان الأمر المُتعالي:

أعلن نيتشه في العام 1883 ميلاديّة في كتابه «هكذا تكلّم زرادشت»[2] موت الإله (الله) وقال: «لقد ماتت جميع الآلهة. والآن إرادتنا هي أن يولد الإنسان الأعلى»[3]. وقد أثار كلام نيتشه ردود فعلٍ علميّةٍ وغير علميّةٍ مُتعدّدة. وكُتبت كتب ومقالات عدّة حول هذا القول. وألّف هيدجر أيضًا رسالةً باسم «كلام نيتشه: الإله (الله) قد مات»[4]، والتي طُبعت ضمن مجموعة «دروب الغابة»[5]. ويشير في تلك الرسالة إلى أنّ: «محاولة اختبار حقيقة مثل ذلك البيان حول موت الله بعيدًا من التّشويه الفكريّ، ليس إلّا أن نعرف فلسفة نيتشه»[6].

ومن منظوره، إنّ الكثيرين أخطأوا في تفسير تلك الجملة، وإنّهم لم يفكّروا فيها كما ينبغي، يقول هيدجر: «هناك إمكانيّة للنّظرة السّطحيّة إلى ذلك الموضوع؛ بحيث يمكن القول: إنّ السِّيادة على «الموجود» تتجاوز سيادة الله على الإنسان، أو أن نيتشه يضع الإنسان في مكانة الله، وأولئك الذين يفكّرون بتلك الطريقة أخذوا في الحسبان ماهيّة الله بشكلٍ غير صحيح. «الإنسان» غير قادرٍ أبدًا على أن يحلّ محلّ الله؛ لأنّ ماهيّة الإنسان لا تصل أبدًا إلى مجال ماهيّة الله»[7].

يعتقد هيدجر أنّ العصر الجديد هو عصر محوريّة الإنسان بدلًا من محوريّة الله، عصرٌ «فرّت فيه الآلهة» وأصبحت السِّمة البارزة في هذا العصر «غياب الله والألوهيّة»[8]. ويُطلق هيدجر على عصرٍ فارغٍ من المعنويّة والذي فرّت منه

1- مارتن هيدجر، «عصر تصوير العالم»، مصدر سابق، ص78.

2- also, sprach Zarathustra.

3- نيتشه فريدريك، هكذا تكلّم زرادشت، ترجمة: داريوش آشوري، انتشارات پرسش، طهران، 1373، ص442.

4- Nietzsches wort: Gott ist tot.

5- Holzwege. (1950).

6- مارتن هيدجر، «كلام نيتشه: لقد مات الإله»، دروب الغابة، ترجمة: منوتشهر أسدي، ص 303.

7- المصدر نفسه.

8- مارتن هيدجر، ماذا يفعل الشعراء؟، مصدر سابق، ص319.

الآلهـة، اسـم «عصـر الظّلمـة»[1]، «اللّيـل الحالـك»[2] و«اللّيـل المظلـم»[3]. وتـدلّ هـذه التعابيـر على أنّ التفكيـر المعنـويّ بـرأي هيدجـر، يتمتّـع بمكانـةٍ عميقـةٍ ومُهمَّـة. ذلـك أنّ الأمـر المتعالـي يهـب المعنـى للحيـاة وهـو مُتّـكأٌ معنـويٌّ للبشـر. وفـي الحقيقـة، إنّ الكثيـر مـن المشـاكل في العصـر الحديـث ناشـئةٌ مـن «الانحطـاط المعنـويّ»، فالنفعيّة، والأداتيّـة، والتفكيـر الحسـابيّ، والهيمنـة على الأرض،... كلّ ذلـك ناشـئ مـن فقـدان الأمـر المُتعالـي.

مـن خـلال ذِكـر هيدجـر لقصّـة ذلـك المجنـون الّـذي يصـرخ في وسـط النهـار وبيـده مصبـاح، إنّـي أبحـث عـن اللـه! إنّـي أبحـث عـن اللـه!... يقـول: «أحيانًـا، إنّهـا صرخـة مُفكّـرٍ حقيقـيّ. هـل أُذُننـا مصغيـةٌ لتلـك الصّرخـة؟ لـن نصغـي إلى تلـك الصّرخـة حتـى نتأمّـلَ فيهـا. ويبـدأ ذلـك التفكيـر عندمـا نـدرك أنّ العقـل المهيمـن على القـرون الماضية كان عبـارة عـن أكثـر التّناقضـات في مجـال الفكـر»[4].

لقـد كان هيدجـر مُتعاطفًـا مـع نيتشـه وكان يصغـي إلى أسـئلةٍ تبـدو في الظاهر أسـئلةَ مجنـونٍ، ولكنّـه مُفكّـر. نحـن كيـف فعلنـا مثـل ذلـك الأمـر؟ كيـف كنّـا قادريـن على تجفيـف البحـر؟ مـن الّـذي سـاعدنا؛ كـي نجعـل ذلـك الأفـق الملـوّن بـلا لـون؟ مـاذا فعلنـا حتّـى حرمنـا تلـك الأرض مـن فيـض نور شمسـها؟ والآن أين مسـار تلك الشـمس؟ وإلـى أيّ اتِّجـاه نسـير؟ بعيـدًا عـن الشـمس، فـي أيّ وادٍ نحـن هائمـون؟ ألـم نسـقط وسـط كل ذلـك في هاويـةٍ مرعبـةٍ جـدًّا؟ في أيّ اتّجـاهٍ تـمّ رمينـا؟ ألسنا قلقيـن مـن ذلـك العـدم اللّانهائـيّ؟ ألا يهـبّ نسـيم ذلـك الفضـاء الفـارغ على وجوهنـا؟ ألـم يصبـح ذلـك الجمـود عظيمًـا جـدًّا؟ ألا ينتهـي ظـلام ذلـك اللّيـل المُتزايـد أكثـر فأكثـر؟ ألا يجـب أن تصبـح الفوانيـس مُضـاءة في ضيـاء الظهيـرة؟ كيـف يمكننـا تعزيـة أنفسـنا، ونحـن أكبـر الجُنـاة الّذيـن قتلنـا الإلـه الأقـدس والقـادر تحـت سـكّين غفلتنـا؟ مـن الّـذي سـوف يزيـل تلـك البقعـة عـن أحضاننـا؟ بـأيّ مـاءٍ سـنتمكّن مـن تطهيـر أنفسـنا؟ مـا البـركات المُقدّسـة الّتـي يجـب أن نجدهـا بـدلًا مـن ذلـك؟

ينطـق هيدجـر على لسـان ذلـك المجنـون قائلًا: «لقـد جئت مبكـرًا جـدًّا، إنّ وقتي لم

1- مارتن هيدجر، ماذا يفعل الشعراء؟، مصدر سابق، ص319.

2- المصدر نفسه، ص 320.

3- المصدر نفسه.

4- مارتن هيدجر، «كلام نيتشه: لقد مات الإله»، مصدر سابق، ص315.

يحن بعد. إنّ ذلك الحدث العظيم لا يزال في منتصف طريقه، وهناك طريقٌ طويلٌ أمامه»[1]. ولذلك، إنسان اليوم خالٍ من المعنى، ويتّجه نحو العدميّة الميتافيزيقيّة. «يُلخّص نهاية عصر حضور الله والألوهيّة في معنًى واحد؛ «عصر الظلام» كليلةٍ حالكة قد أحاطت بهذا الطريق، والأمر ليس مُجرّد فرار الألوهيَّة والله من هذا الوسط؛ بل إنّ تلك البارقة والنُّور الإلهيّ قد ماتا في تاريخ العالَم وتقديره. ذلك هو عصر الظّلمة، الّذي يسمّى زمن المشقّة والعسرة التي يزداد عبئها الرّهيب»[2]. ذلك العصر هو ذروة الميتافيزيقا الغربيّة ونهايتها.

إنّ الإنسان المعاصر بلا أساس، وبلا أصل، بلا معنى، وبلا هدف. «عندما يكون الإله (الله) بوصفه أساسًا لما وراء الحسّ، وغاية كل الأشياء الحقيقيّة قد مات، ويكون العالم الماوراء الحسّ قد دمّر أفكار قوّته وطاقته الخلّاقة، فلن يتبقّى شيءٌ بعد ذلك يمكن لـ«الإنسان» أن يجعله أساسًا. وهكذا، سنواجه مثل هذا السّؤال: ألسنا مثل ذلك العدم اللّانهائيّ، نتّجه نحو الفناء والخطأ ؟»[3].

في نهاية هذا القسم، سوف نركّز على أمرين، على الرّغم من وجود الكثير من العلامات الّتي تشير إلى أنّ هيدجر بقي مؤمنًا في حياته الشخصيّة، وإصراره على إقامة المراسم الدينيّة بعد وفاته، وذلك يظهر جليًّا في رسالته إلى الكاهن كربس؛ إذ يقول: «على الرّغم من انفصالي عن المذهب الكاثوليكيّ إلّا أنّي ما زلت مسيحيًّا»، ولكن تعبيره عن «الأمر القدسيّ»، و«الله»، و«التفكير المعنويّ»، «والانعتاق»، و«التقوى»... لم يكن يدلّ على دين، أو مذهب خاصٍّ، وهذا ما تُظهره انتقاداته الكثيرة للمسيحيّة، وللطقوس الكنسيّة. ولذا، عَدَّه بعضهم «مُلحدًا» وفلسفته فلسفة إلحاديّة، حتى إنّ سارتر عَدّه في عداد الفلاسفة المُلحدين؛ وهذا الأمر يرفضه هيدجر في رسالته «رسالةٌ في النّزعة الإنسانيّة (الإنسانويّة)» بشدّة، على الرّغم من أنّه لا يصدر أيضًا حكمًا خلاف ذلك.

«وحده الله يستطيع أن يخلّصنا»[4]؛ جملةٌ نطق بها هيدجر مرارًا وتكرارًا وهي

1- مارتن هيدجر، «كلام نيتشه: لقد مات الإله»، مصدر سابق، ص261-262.

2- جونن كورتني موري، « الإنسان الملحد في عصر الحداثة وعصر ما بعد الحداثة»، ترجمة: هدايت علوي تبار، في: مجلة أرغنون الفصليّة، العددان 11 و 12، ص81 و 124.

3- مارتن هيدجر، «كلام نيتشه: لقد مات الإله»، مصدر سابق، ص257.

4- Nietzsches wort: Gott ist tot. ←

عنوان مقابلةٍ معه لمجلّة شبيغل الألمانيّة. ما يجيب عنه هايدجر في تلك المقابلة وهو على ما يبدو آخر كلام له على مسامع العموم، والّذي نُشر بعد وفاته في العام 1976م؛ إنّما يُعبّر عن رأيه في الأمر المُتعالي والله؛ إذ عندما يسأله الصّحافيّ إن كانت الفلسفة باعتقاده يمكن أن تُقدّم أيّ مساعدةٍ للإنسان في تلك الوضعيّة أم لا؟ هل يمكن لأيِّ شخصٍ أن يؤثّر في القوى التي تتحكّم بنا؟ هل يمكن للفلسفة، أو لفردٍ، أو مجموعةٍ من النّاس أن تقودنا إلى فعلٍ مُحدّدٍ وحاسم؟ يجيب هيدجر: «دعني أُقدّم إجابةً مختصرةً وشاملة، وهي بالطّبع نتيجة تفكيرٍ طويلٍ في هذا الشأن، وهي أنّ الفلسفة لا تستطيع، بأيّ حالٍ من الأحوال، إحداث تغييرٍ مباشرٍ وفوري في الحالة الرّاهنة للعالم. بالطّبع، لا يتعلّق الأمر بالفلسفة فقط؛ بل يشمل كل العلوم الإنسانيّة. الآن فقط الله هو مَن يستطيع أن يُخلّصنا. الاحتمال الوحيد المُتبقّي لنا هو أن نُقدّم في الشعر والفكر نوعًا من الاستعداد لظهور الله، أو العكس الاستعداد لغياب الله. في ظلّ تلك الظُّروف من السّقوط والانحطاط التي نمرّ فيها، لنوفّر الاستعداد لحضوره؛ لأنّه في حالة غياب الله سوف نتدهور أكثر نحو الانحطاط. وعندما سُئل: هل هناك علاقة بين تفكيركم وظهور هذا الإله (الله)؟ برأيكم هل تلك العلاقة علاقة سببيّة؟ هل مرادكم أنّه بالتفكير يُمكننا جعل الله قريبًا؟ هل يمكننا المساعدة في سبيل تسهيل مجيء الله؟ فيجيب هيدجر بأنّه لا يُمكننا تقريب الله بتفكيرنا؛ بل يُمكننا، في الحد الأقصى، أن نُوفّر الاستعداد لانتظاره. يجب أن يكون تهيئة الاستعداد الخطوة الأولى على ذلك الدَّرب»[1].

في أكثر أعماله، يدعو هيدجر عالم اليوم إلى العودة إلى التّفكير؛ بحيث إنّ بعض دروس كلماته كانت بعنوان «حول موضوع التفكير»، «نهاية الفلسفة ووظيفة التفكير»، تفكيرٌ أساسه العقل والحكم؛ لينقذ الإنسان من مسار العدميّة، تفكيرٌ يُهيّئ لظهور المُنقذ، ويأخذ الإنسان القلق والمضطرب في العصر الجديد إلى منزل الطُّمأنينة والاستقامة. فالتفكير المعنويّ يهب لحياة الإنسان معنًى وهدفًا، ويُشكّل

← اتّخذت مجلة اشبيغل الألمانيّة تلك الجملة لهيدجر عنوانًا لمقابلةٍ معه في العام 1976م. وفضلًا عن ذلك، كتب جون ماك لواري الباحث في أفكار هيدجر، مقالةً بهذا العنوان في مجموعة «الفلسفة وأزمة الغرب»، وقد تمّ ترجمتها وطباعتها من قِبل انتشارات هرمس.

1- مارتن هيدجر، «وحده الله يستطيع أن يخلّصنا»، ترجمة: آرامش دوستار، طهران، سازمان چاب وانتشارات، ص118-85.

أساس التأمُّل في الحقيقة. «في الأزمة المعاصرة، هناك حاجة أقل للفلسفة، ونحتاج إلى إيلاء المزيد من الاهتمام للتفكير، هناك حاجة أقل إلى الآداب، لكنّنا بحاجة إلى تربية الآداب، وأدب التَّعلُّم»[1]. إذن، هيدجر يدعونا إلى مراعاة القواعد المتناسبة مع تفكير تاريخ الوجود، «الدِّقَّة في التّأمُّل، والعناية في التعبير، والتّوفير في الكلام»[2].

3. العدميّة والتَّشرُّد:

«العدميّة» هي بيت القصيد لكتابات نيتشه؛ وهيدجر في إثارته لهذا الموضوع مُتأثّرٌ بنيتشه. وعدد كبير من كتابات هيدجر تدور حول نيتشه؛ إذ إنّه كتب وحاضر في أغلب المقولات المهمّة لفلسفة نيتشه. وغير كتابه المؤلف من مجلدين حول نيتشه والذي طُبع في العام 1961م، فقد اهتمّ بجدّيّة بموضوعات، مثل: «من هو زرادشت نيتشه؟»[3]، و«إرادة الاقتدار(القدرة) عند نيتشه»[4] و«ميتافيزيقا نيتشه»[5].

يعتقد هيدجر أنّ نيتشه يُعبّر عن الخلاصة الكاملة والغاية النّهائيّة للميتافيزيقا الغربيّة. إنّ نيتشه هو أحد العناصر الرئيسة لأفكار هيدجر. ومن خلال التفكير في أعمال نيتشه الهدّامة والمُدمّرة، أولى هيدجر اهتمامًا جادًّا لقضايا مُهمّة، مثل: العدميّة التكنولوجيّة في العصر الحديث، وعصر تصوير العالم، والأزمات المهمّة في العصر الجديد. وقد بقي دائمًا مادحًا لنيتشه وناقدًا له. ويسمّي نيتشه بأنّه «آخر فيلسوف ألمانيّ»، «المُفكّر الجادّ الوحيد بعد شيلينغ»، «آخر مُفكّرٍ في الغرب»[6]. ويُخضع هيدجر بصفته مُفكّرًا يحاول فتح أفقٍ جديدٍ في الفكر، التاريخ الميتافيزيقيّ للغرب لأقسى الانتقادات والتدقيق؛ وعلى الرّغم من تأثّره بنيتشه في إثارة أهمّ الموضوعات، إلّا أنّه يعدُّه مُقيّدًا بالميتافيزيقا، ويقدّم نيتشه على أنّه نهاية الميتافيزيقا وبداية العدميّة.

يعتقد هيدجر مثل نيتشه أنّ من جُملة أزمات العصر الجديد التي كان للإنسان

1- Letter on Humanism", p.196.

2- المصدر نفسه.

3- wer ist Nietzsches Zarathustra? (1967)

4- Nietzsche, per wille zur macht.

5- nietzsches metaphysic 1941/2.

6- بابك أحمدي، مصدر سابق، ص265 - 285.

المعاصر دور أساس في إيجادها، أزمة العدميّة واللّامعنى التّام. ويعتقد هيدجر ونيتشه أنّ العالم المعاصر يعاني من «العدميّة» واللّامعنى التّام؛ وهذا الأمر هو نتيجة الفكر الغربيّ وتاريخه. ولكنّهما لا يتّفقان على تعريف «العدميّة». فمن منظور نيتشه، العدميّة يعني أن تصبح أعلى القيم بلا قيمة، عصرٌ لا يوجد فيه هدفٌ، ولا يوجد إجابة عن سؤالِ «لماذا»[1]. وفي رؤية نيتشه، «الإله قد مات» والإنسان المعاصر في ظلّ التَّحوُّلات الجديدة للحياة العلميّة – الثقافيّة، قد ألغى الله من حياته، ونقل سلطته إلى قوى عقله. وبالنسبة إلى الإنسان المعاصر فقد أصبحت جميع القيم المُتعالية التي لم يكن يُشكّك في قيمتها في زمنٍ ما، بلا قيمة. إنّ العصر الجديد هو عصر زوال القيم الكلّيّة والمُتعالية. لم يعد للعالَم من هدفٍ، وأصبحت جميع القيم السّائدة بلا قيمة، وظهرت العدميّة. «عصرٌ فيه كلّ شيءٍ بلا معنى»[2]. «أكثر علامات هذا العصر شيوعًا منذ العصر الحديث: فَقْدُ الإنسان تقديره لذاتِه بطريقةٍ لا تُصدَّق؛ إذ لم يعد هناك من بطلٍ للكون منذ مُدّةٍ طويلة»[3].

يدرك نيتشه العدميّة عن طريق التّفكير القيميّ، ولكن إقامة الاتّصال بين العدميّة والتّقويم أمرٌ غير مُسلّم بأيّ وجهٍ من الوجوه[4]. من هنا، يُعارض هيدجر الفكر القيميّ لنيشته بكلّ ما أُوتِي من قوّة؛ لأنّه من منظوره التفكير في إطار القيم هو أعظم تدنيس يمكن تخيُّله للوجود. ولهذا السّبب، يقول هيدجر في مكانٍ آخر: «التفكير من منظور القيم هو «القتل الأكثر تطرُّفًا»[5]. ويعتقد هيدجر أنّ نيتشه لا يزال في قيد الميتافيزيقا: «كان نيتشه آخر مُفكّرٍ في تاريخ ميتافيزيقا الغرب عانى من ذلك التشرّد. ولم يستطع إيجاد طريقٍ آخر لأجل ذلك التشرّد في الميتافيزيقا

1- فريدريك نيتشه، «إرادة القوّة»، ترجمة: محمد باقر هوشيار، طهران، نشر وپژوهش فرزان، 1376، ص64.

2- المصدر نفسه، ص62.

3- المصدر نفسه، ص70.

4- مارتن هيدجر، و... ، «العدميّة الأوروبيّة لنيتشه مع ثلاثة تفسيرات»، ترجمة: محمد باقر هوشيار و اصغر تفنكساز، ص184.

5- اميل كترينغ، «العدميّة من وجهة نظر نيتشه وهيدجر»، العدميّة الأوروبيّة، ترجمة أصغر تفنكساز، ص189.

سوى الإطاحة بالميتافيزيقا وتلك ذروة العدميّة»[1]. ومن منظور هيدجر، العدميّة هي نسيان الوجود عندما يغفل الإنسان عن ذلك الوجود، ويسقط في الروتين اليومي، ويغرق في الحياة اليوميّة. والسقوط يعني أن تصبح بلا عالم، يعني طلب الدّعة[2]، والغربة، أو اغتراب الذات[3] الّتي تؤدّي في نهاية المطاف إلى العدميّة.

من منظور هيدجر، العصر الحديث هو عصر استكمال سقوط الإنسان. ويرتبط انعدام العالم بالتشرّد واللّاأساس وهذا يؤدّي إلى إلغاء الوجود ومِنْ ثَمَّ، العدميّة. ويهدف هيدجر إلى فتح طريق خلاصٍ من أجل الخروج من انعدام العالم. وهو يعتقد أنّ من مقتضيات انعدام العالم إعطاء الأصالة إلى الصّراع بين الذات والموضوع في الفلسفة الجديدة. فانعدام العالم قد اختفى في جذور شجرة ديكارت. ومِنْ ثَمّ، أثمر وازدهر في العلوم التكنولوجيّة التي هي من ثمار تلك الشجرة.

يُعَدُّ هيدجر من النّقّاد المُهمّين لفكر ديكارت ولعلّه من أهمّهم. ففي أهمّ أعماله، مثل: الوجود والزمن، «رسالة في النّزعة الإنسانيّة»، وما إلى ذلك، يهاجم بشدّة ديكارت وفكره. وقد خصّص القسم الأعظم من «رسالة في النزعة الإنسانيّة» في نقد الذاتيّة الديكارتيّة. فهو يرى أنّ ديكارت قد أوجد أعظم الصُّعوبات للإنسان أمام فهمه الصحيح للعالم، وبطرحه للاختلاف بين الذات والموضوع قد أغلق طريق فهم «الكينونة في العالم»، وبتمييزه بين الذات والموضوع قد وفّر الأرضيّة لعدم وجود معنى لكليهما[4].

مع تفكير ديكارت، حدث تغييرٌ آخر في الميتافيزيقا الغربيّة، والذي كانت نتيجته عَدّ الحقيقة أكثر من مجرد توافق الأمر الذهني والموضوع. وطبقًا لهيدجر، في العصر الحديث، الإنسان، الذي هو ذلك الذهن المُدرِك؛ أي «الذات» الديكارتيّة، قد انقطع عن الوجود وانغمس في حضن المعرفة، ووقع أسيرًا في سجن الذّهن. ولذلك، فإنّه يعدُّ العالم تصويرًا، أو صورةً. ومِنْ ثَمَّ، يتمّ القضاء على الثّراء الماهويّ للعالم في ذلك الفهم. في العصر الجديد، العالم المُصوّر قائمٌ على

1- Martin Haidegger, «Letter on Humanism», p.217-218.

2- Tranguillizing.

3- Alienation.

4- للاطّلاع على موضوع نقد الذاتيّة من وجهة هيدجر، يمكن الرجوع إلى: مُقدّمة كتاب بيجن عبد الكريمي، هيدجر والمتعالي، طهران، نقد فرهنگ، 1381.

أساس العقل الديكارتيّ والذات، وقد توفّرت إمكانيّة سلطة الإنسان على العالم.

كان هيدجر يعدُّ نيتشه نهاية الميتافيزيقا الغربيّة وغايتها، وكان يُوجّه نقده له من نافذة أفكار ديكارت. بهذا المعنى، يبدأ نسيان الوجود والمسألة الأساسيّة للتشرّد البشريّ مع أفلاطون، ويبلغ ذروته مع ديكارت، وينتهي مع نيتشه. وباعتقاد هيدجر، لا يزال نيتشه مقيّدًا بميتافيزيقا الذهنيّة (الذاتيّة) من خلال تعريفه الوجود بصفته «إرادة»؛ إذ بقي نيتشه ميتافيزيقيًّا ديكارتيًّا معتقدًا بـ «الذات». ولذلك، فهو تجسيدٌ للعدميّة الغربيّة.

بناءً لما تقدّم، التشرّد هو نتيجة نسيان الوجود، أو الغفلة عنه، والعدميّة هي نتيجة التشرُّد. «تبدأ هيمنة التشرّد الحالي من الوجود وفي هيمنة التشرّد تلك، يعاني الإنسان من الضّلالة والحيرة. التشرُّد هو علامة نسيان الوجود؛ لأنّه بسبب النّسيان لا يتمّ التّفكير بحقيقة الوجود»[1].

لا يملك الإنسان المعاصر الشعور الصحيح عن مكان معيشته؛ فالأرض ليست مكانًا للسّكن؛ بل أصبحت أداةً للاستغلال والتشرُّد وعدم امتلاك المكان ليس إلّا نتيجة لتلك الطريقة في العيش. وهذا العصر هو عصر الاضطراب و «عصر الجليد»، وعصر بلا هدفٍ وبلا معنى. «إنّ التشرُّد يوشك أن يصبح مصير العالم، من الضروريّ التفكير في المصير وفقًا لتاريخ الوجود»[2] يحتاج الإنسان والوجود إلى بعضهما بعضًا بشكلٍ مُتبادل كمكان إقامة، ونتيجة عدم معرفة هذا الواقع هو التشرّد وعدم الانتماء إلى وطن. إنّ هيدجر هو أوّل فيلسوف عالج العدميَّة من المنظور الوجوديّ. ومن منظوره، العدميّة هي ليست واقعًا نتيجة خطأ في الفكر؛ بل هي نتاج الحرمان التّاريخيّ من الوجود[3].

4. الغفلة عن الوجود:

يعتقد هايدجر أنّ جذور معظم مشكلات العصر الجديد هي في «الغفلة عن الوجود». ويكتب في بداية كتابه «ما الميتافيزيقا؟»: «إنّ ديكارت بتشبيهه الفلسفة بالشجرة، قد اعتقد الميتافيزيقا جذورها، ونحن نتريّث أمام هذا الكلام ونسأل: في أيّ أرضٍ وترابٍ تجد جذور شجرة الفلسفة مستقرّها؟ من أيّ أرضٍ تأخذ الجذور،

1- Martin Haidegger, "Letter on Humanism", p. 218.

2- اميل كنزينغ، مصدر سابق، ص194.

3- المصدر نفسه، ص 219.

ومِنْ ثَـمَّ؛ كل الشـجرة عناصرهـا المغذّيـة والمُقويّـة لهـا؟ مـا الأسـاس المخفيُّ في التربـة والأرض الـذي يُمسـك بزمـام تخصيـب أسـاس الشـجرة والحفـاظ عليـه؟ أيـن المـكان الـذي ترقـد فيـه ذات الميتافيزيقـا، وأيـن تتحـرّك؟»[1]. ويعتقـد هيدجـر أنّـه عندمـا لا يكـون للكائنـات أصـل، أو أسـاس في الوجـود، فإنّ الحيـاة اليوميّـة تنهـار نحـو الخراب. فالبشـر والشـعوب يعانـون مـن «الانحطـاط» ؛ لأنّهـم سـقطوا خـارج «دائـرة الوجـود».

مـن منظـور هيدجـر، فـي عمليّـة هيمنـة التكنولوجيـا، تتسـارع غربـة الإنسـان عـن الوجـود. لقـد اختفـى السـؤال حـول الوجـود عـن سـاحة الأبحـاث الفلسـفيّة مـن خـلال إثـارة مقـولاتٍ ملموسـةٍ وبعـد ذلـك، ظهـرت سلسـلةٌ مـن الألفـاظ التـي سـاقت نحـو الغفلـة، وأدّت في نهايـة المطـاف إلى دمـار الممارسـة الأصيلـة (براكسـيس) التاريخيّة. ولذلـك، بالنسـبة إلى هيدجـر، إنّ تاريـخ الغرب هـو تاريخ النسـيان والاكتئـاب التدريجي لنـور الوجـود[2]. ومـن منظـوره، إنّ تاريـخ الميتافيزيقـا هـو تاريـخ نسـيان الوجـود[3]. ولكـي نتتبّـع أهمّيّـة بحـث «الوجـود» في نقاشـات هيدجـر، يكفـي أنّ نلقـي نظـرةً على أعماله، وعلـى موضوعاتـه ونقاشـاته المفتاحيّـة المُتّصلـة بذلـك المفتـاح الأسـاس. فهـو إذا مـا كان يُثيـر أزمـة «التفكيـر»، وإذا مـا كان يعالـج «التكنولوجيـا»، وإذا مـا كان يتوجّـه إلى «الإنسـان»، وإذا مـا كان يهتـمّ بموضـوع «اللُّغـة» و«الفـن»، فلأنّـه كان يعتقـد كل تلـك الأمـور مرتبطـة بالتّوجُّـه إلـى الوجـود والغفلـة عنـه. «التفكيـر هـو التـزامٌ بالوجـود»[4]، «يسـتكمل المُفكّـر علاقـة الوجـود بالإنسـان»[5]، «اللُّغـة هـي منـزل الوجـود، ويختـار الإنسـان المسـكن في ذلـك المنـزل»[6]. ومـن منظـور هيدجـر، الفكـر الفلسـفيّ الحقيقـيّ هـو التأمُّـل مـن أجـل الإجابـة عـن السـؤال حـول معنـى الوجـود، وقـد انحرفـت الفلسـفة الغربيّـة عـن مسـارها الأصلي لقـرونٍ مُتماديـةٍ؛ بسـبب الغفلـة عـن هـذا السـؤال.

1- مارتن هيدجر، ما الميتافيزيقا؟»، ترجمة: سياوش جمادي، ص 131 و 132.

2- بـروس اسـميث غرغـوري، هيدجـر والعبـور إلـى مـا بعـد الحداثـة ، مصـدر سـابق، ص 267و 268.

3- مارتـن هيدجـر، مدخـل إلـى الوجـود والزمـان، ترجمـة: منوتشـهر اسـدي، طهـران، نشـر پرسـش، 1380، ص28.

4- Martin Haidegger, “Letter on Humanism”, p.193-199.

5- المصدر نفسه.

6- المصدر نفسه.

5. الاستبداد الخاص بالمرحلة المعاصرة:

تُعدُّ الحياة السّياسيَّة لهيدجر إحدى أكثر النّقاشات إثارةً حول أفكار ذلك الفيلسوف المعاصر الكبير. فقد وجّه إليه معارضوه أشدّ الانتقادات لترأّسه جامعة فرايبورغ في العام 1933م (في زمن سيطرة النّازيِّين) لعام واحد فقط، وقد زاد صمته الأمرَ غموضًا[1].

انطلاقًا من هذه المقالة، وبعيدًا من إصدار أحكام قيميّة خاصّة، سوف نمرّ على فكر هيدجر النّظريّ حول الأمر السّياسيّ وحرّيّة الإنسان. يرى هيدجر أنّ إحدى مشكلات العصر الجديد هي استبداد المجال العام والاعتماد المفرط على الرّأي العام، ويسخر من الديموقراطيّة الحاليّة، ويراها عاجزة عن حلّ مشكلات البشر. وعلى الرّغم من أنّ هيدجر لم يهتمّ إلّا قليلًا بهذا الأمر في أعماله، إلّا أنّ كثرة ما كتبه المعارضون والمؤيّدون جعله يتطرّق إلى هذا الأمر ولو بإيجاز. ويعتقد هيدجر أنّ العصر الجديد هو عصر السّيادة المُستبدّة للمجال العام، أو استبداد الجماهير. ففي العصر الجديد، يُستند إلى الاستبداد الخاصّ للآراء الجماهيريّة أكثر من أيّ شيءٍ آخر. إنّ ما يُدعى بـ «الوجود الفرديّ»، والوجود البشريّ الذاتيّ حقًّا، ليس الموجود الإنسانيّ الحرّ... وحتى اللُّغة انضوت تحت سيطرة المصدر الديكتاتوريّ للمجال العام الذي يُحدّد مُسبقًا ما هو الشيء القابل للفهم، وما هو الشيء الذي يجب طرده بصفته أمرًا غير قابل للفهم.

لم يقصد هيدجر من الطبيعة الشموليّة فقط تلك المنحصرة في الاستبداد الحكوميّ، أو بأيّ شكلٍ خاصٍّ من أشكال الاستبداد؛ بل كان يرى المعنى الدقيق للشمولية على أنّه مصيرٌ العدميّة التكنولوجيّة للعصر الجديد. ولذا، لم يكن هيدجر يرى أنّ هناك فرقًا بين الديموقراطيّة اللّيراليّة والحكومة الشيوعيّة والديكتاتوريّة الفاشيّة؛ إذ إنّ كلّ ذلك شموليّ وفي ماهيّته مستبدٌّ ويعدُّ العالم والأشياء أمورًا يمكن السّيطرة عليها. فكلّ أنواع تلك الحكومات تسعى خلف السّيطرة على المجتمعات البشريّة، وتوجيه الأفكار وفقًا لما ترغب وخلافًا لما كان سائدًا ومعمولًا به في المرحلة اليونانيّة، لا تعطي قيمة للتّفكير وإثارة السّؤال. ويعارض هيدجر توحيد

1- طغى خطأ هايدجر الفكريّ والسّياسيّ خلال النّازيّة على أفكاره لدرجة أنّ خصومه سعوا إلى الحصول على ما يدعم فاشيّته فكريًّا ونظريًّا في أعماله. حتى إنّهم ينظرون إلى كتاب هيدجر المُهمّ، الوجود والزمن من خلال تلك النافذة. للاطّلاع أكثر: ميغل دي بيستغي، هيدجر والسّياسة، ترجمة: سياوش جمادي، طهران، انتشارات ققنوس، 1381.

العقائد ضمن مجموعة واحدة، والتبعيّة في القيم الجماهيريّة، في حين أنّ الفكر السّياسيّ الحديث يريد تعميم (جمهرة) القيم، وعالميّة المعتقدات وتوحيدها وبالحد الأدنى التسليم لحكم الأكثريّة[1]. وفقًا لهايدجر، أصبحت السّياسة ـ في العصر الحديث ـ هي القاعدة والأسلوب والتكنولوجيا للحكم والسيطرة، والعالم عالق في وسط الخراب والانحدار المعنوي بين القوّتين العظمتين: روسيا، والولايات المتّحدة؛ ومع استمرار هيمنة مثل تلك الحكومات، وفقدان آخر عناصر المعنويّة، ستفقد الشعوب حتى القدرة على رؤية الدّمار الحالي[2].

لقد كان هيدجر من مُعارضي الديموقراطيّة الغربيّة الحاليّة ويعدّها مُتّفقة مع الشموليّة، واستبداد الجماهير، ومن جملة مشكلات العصر الحاضر. «دائمًا ما كانت تريد أوروبا الالتصاق بالديموقراطيّة، ولا تريد أن ترى الديموقراطيّة بحكم موتها المحتوم؛ لأنّه كما كان نيتشه يرى بوضوح، الديموقراطيّة هي إحدى أشكال العدميّة»[3]. وقد بقي هيدجر على اعتقاده هذا حتى آخر عمره. وما يمكن فهمه من مجموع أعماله في هذا الشأن هو أنّه لا يعتقد أنّ الأنظمة السّياسيّة الموجودة، ومن جملتها الديموقراطيّة، عاجزةً عن الاستجابة فقط؛ بل هي أيضًا من ضمن عوامل انحطاط المعنويّة وأفول التفكير في العصر الجديد، ومن العوامل المهمّة للنزعة نحو المطلق والنُّموّ من دون حساب، التفكير الحسابي والعدميّة التكنولوجيّة.

من منظور هيدجر، تمّ اختزال «الحرّيّة» في السّياسة المعاصرة بحقوق المواطنيّة ونشرها، وبحكم الأكثريّة وحرّيّة العقيدة و/أو عملها الاجتماعيّ. ولكن تجدر الإشارة إلى أنّ الحرّيّة الإنسانيّة لا تُختزل في الحياة السّياسيّة؛ لأنّه يتمّ تقييد الحريّة الفرديّة حتى في أكثر الأنظمة السِّياسيَّة والاجتماعيَّة ديموقراطيّةً، في قالب موادّ قانونيّة مُحدّدة. إنّ الحرّيّة الإنسانيّة أعلى من الحياة السّياسيّة، ومرتبطة بكل الوجود؛ وسوف تتجلّى الحرّيّة، حيث ينفتح البشر على الوجود. الحرّيّة ليست فقط حرّيّة من الحاكميّة؛ بل حرّيّة من أيّ استغلالٍ، على الرّغم من أنّه لا يوجد في العصر الجديد حرّيّة من الحاكميّة بالمعنى الكامل والحقيقيّ.

وسوف نختم كلامنا بمخاوف مارتين هيدجر من اضطراب الإنسان الحديث،

1- بابك أحمدي، هيدجر وتاريخ الوجود، مصدر سابق، ص530.

2- بورس اسميث غرغوري، هيدجر والعبور إلى ما بعد الحداثة ،مصدر سابق، ص266.

3- مارتن هيدجر، نيتشه، نقلًا عن: هيدجر وتاريخ الوجود، ص564.

ومن النّزعة العلميّة وأداتيها الإفراطيّة، بنحوٍ تمّ فيه حذف الأمر المُتعالي والبسيط وقلّ عدد المفكّرين. ذلك الخطر يُهدّد دائمًا اليوم أُناسًا يستمرون في الاستماع إلى ضجّة الآلات ظانّين أنّها صوت إلههم. وهكذا، يصبح الإنسان مُضطربًا، ومن دون أيّ مكان[1].

1- مارتن هيدجر، «درب المزرعة الضّيّق»، مفهوم الزمان وعدّة آثار أخرى، ترجمة: علي عبد الله، طهران، مركز نشر، 1383، ص24.